مركز مار مرقس للدِّراسات اللِّيتورجيَّة
التَّابع للكاتدرائيَّة المرقسيَّة القديمة بالأزبكيَّة بالقاهرة
يوم الثُّلاثاء ٧ نوفمبر سنة ٢٠١٧م

معنى الرَّمز والمثال

σύμβολον (سيمفولون) – τύπος (تيبوس) – ὁμοίωμα (هومِيوما)

في نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة وكتابات آباء الكنيسة

الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

المحتويات

أوَّلاً: مفهوم ''الرَّمز والمثال'' في العهد القديم ١
ثانياً: مفهوم ''الرَّمز والمثال'' لغوياً في اللُّغتَين اليونانيَّة والقبطيَّة ٤
ثالثاً: معنى ''الرَّمز والمثال'' في اللاَّهوت الآبائي المبكِّر وعلاقته بالأسرار الكنسيَّة ٦
رابعاً: بعض نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة التي تتكلَّم عن أحداث العهد الجديد بمفهوم ''الرَّمز والمثال'' ٨
خامساً: بعض أقوال لآباء الكنيسة عن معنى ''الرَّمز والمثال'' ١٠

أوَّلاً: مفهوم "الرَّمز والمثال" في العهد القديم

هناك فرقٌ كبير بين مفهوم ''الرَّمز والمثال'' في كلٍّ من العهدَين القديم والجديد. فالرَّمز في العهد القديم كان يشير إلى حقيقة في العهد الجديد، وإذ قد تحقَّق الرَّمز فلا معنى لبقائه بعد. أي أنه حيث يتحقَّق المرموز إليه، يبطُل الرَّمز.

ويشرح **القدِّيس ديديموس الضَّرير** (٣١٣-٣٩٨م) أنَّ الرَّمز في العهد القديم هو غير الرَّمز في العهد الجديد بقوله:
[إنَّ المسكونةَ كلَّها تتَّفق معنا في تفسير بيت حِسدا على أنَّها إشارةٌ إلى المعموديَّة. وهذا مجرَّد رمزٌ وليس الحقيقة. لأنَّ الرَّمز هو مؤقَّت، أمَّا الحقيقة فهي أبديَّة. ولهذا السَّبب قيل: إنه مرَّة في السَّنة كان الملاك ينزل ليحرِّك المياه، وكان مريضٌ واحدٌ فقط هو الذي يُشفى، أي الذي ينزل أوَّلاً. وكان الشِّفاءُ من الأمراض الجسديَّة، وليس من الأمراض الرُّوحيَّة. لكنَّ المعموديَّة الحقيقيَّة التي تأسَّست بعد ظهور ابن الله وحلول الرُّوح، تحدُث كلَّ يوم، بل كلَّ ساعة، بل كلَّ لحظة، وتُحرِّر إلى الأبد من الخطايا كلَّ من ينزل في المياه] (في الثَّالوث ١١:١).

ويوضِّح **القدِّيس كيرلُّس الكبير** (٤١٢-٤٤٤م) الفرق الهائل بين الرَّمز في القديم، وما يرمز إليه في العهد الجديد. فيقول:
[وأمَّا أنَّ المسيح يقدِّس الكنيسة بدمه الخاص، فالرَّمز κατασημήνειεν إلى ذلك، في كون دم الطَّائر (في العهد القديم) يُنضح به على الخيمة وما فيها] (العبادة بالرُّوح والحق ١٥).

وهكذا نجد أنه شتَّان بين الرَّمز بمفهومنا الحالي، وبين الحقيقة التي يشير إليها هذا الرَّمز. فهو نفس الفرق الكبير بين ناموس العهد القديم، ونعمة العهد الجديد. إنَّه البَون الشَّاسع بما لا يدع مجالاً لأيِّ قياس بين؛

- خروف قُدِّم عوضاً عن إسحق، وبين موت المسيح وقيامته.
- أو بين صخرة صمَّاء، وبين المسيح نفسه.
- أو بين خشبة أُلقيت في الماء المُر فصار عذباً، وبين صليب المسيح الذي يحوِّل مرارة الحياة إلى حلاوة.

وتحتفظ نصوص صلواتنا اللِّيتورجيَّة بكمٍّ ضخم من رموز العهد القديم التي تحقَّقت في عهدنا الجديد. ولكن شتَّان بين الرَّمز وما يرمُز إليه. فعلى سبيل المثال، نُصلِّي في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، ونقول:

• ''مَنْ يقدر أن ينطق بكرامة القبَّة التي صنعها موسى على جبل سيناء، صنعها بمجد كقول الرَّب، وكجميع المثالات التي أُعلنت له. تلك التي كان هارون وبنوه يخدمون فيها بمثال العَلاء ϧⲉⲛ ⲛⲉⲙ ⲕⲁⲧⲁ ⲛⲓⲧⲩⲡⲟⲥ ⲧⲏⲣⲟⲩ ⲡⲧⲩⲡⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡ̀ϭⲓⲥⲓ وظلِّ السَّمائيَّات'' (ثيؤطوكيَّة الأحد، القطعة ١).

• ''عصا هارون التي أزهرت بغير غرسٍ ولا سقيٍ، هي مثالٌ لكِ ⲛⲉ ⲛ̀ⲧⲩⲡⲟⲥ ⲛ̀ϥⲟⲓ'' (ثيؤطوكيَّة الأحد، القطعة ٧).

• ''العُلَّيقة التي رآها موسى في البريَّة، والنَّار مشتعلة فيها، و لم تحترق أغصانُها، هي مثالُ مريم العذراء ϥⲟⲓ ⲛ̀ⲧⲩⲡⲟⲥ ⲙ̀Ⲙⲁⲣⲓ̀ⲁ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ غير الدَّنسة، التي أتى وتجسَّد منها كلمة الآب، ونارُ لاهوته لم تحرق بطن العذراء. وأيضاً بعد ما ولدته، بقيت عذراء'' (ثيؤطوكيَّة يوم الخميس، القطعة ١).

والأمثلة على هذه الرُّموز التي تحقَّقت في العهد الجديد، هي أمثلة كثيرة.

• فالصَّخرة التي نبعت منها المياه في العهد القديم، كانت ترمُز إلى المسيح، وإلى قوَّة الحياة التي نبعت منه، «كانوا يشربون من صخرة روحيَّة تابعتهم، والصَّخرة كانت المسيح» (١كورنثوس ١٠:٤). أمَّا في العهد الجديد فالمسيح نفسه هو الذي يقول الآن: «إنْ عطش أحدٌ فليُقبل إليَّ ويشرب» (يوحنَّا ٧:٣٧).

• والمن الذي نزل من السَّماء في العهد القديم، كان يرمز إلى السيِّد المسيح خُبز الحياة، الذي قال عن نفسه: «أنا هو الخُبز الحي الذي نزل من السَّماء، إنْ أكل أحدٌ من هذا الخُبز يحيا إلى الأبد، والخُبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يوحنَّا ٦:٥١)، «خذوا كُلوا هذا هو جسدي» (متى ٢٦:٢٦).

• والحيَّة النُّحاسيَّة المرفوعة على سارية في العهد القديم، كانت رمزاً للصَّليب في العهد الجديد. فكانت هذه الحيَّة النُّحاسيَّة نجاةً من الموت، لأولئك الذين ينظرون إليها، رمزاً للخلاص الأبدي الذي صار للذين يشخصون كلَّ حين في الصَّليب (يوحنَّا ٣:١٤-١٥).

• ودم ذبائح العهد القديم، كانت رمزاً إلى ذبيحة المسيح ودمه على الصَّليب، الذي يُطهِّر من كلِّ خطيئة.

• وحادثة خروج بني إسرائيل من مصر ونجاتهم بعبورهم البحر الأحمر، كانت رمزاً للخلاص والنَّجاة بمعموديَّة العهد الجديد. وهي تسبحة الهوس الأوَّل التي تُرتِّلها الكنيسة القبطيَّة كلَّ يوم – وليست الكنيسة القبطيَّة فقط، بل وأيضاً الكنائس الشَّرقيَّة كلُّها – وهي الحادثة التي احتلت جانباً كبيراً من كتابات آباء الكنيسة. وكان أوَّل من تحدَّث من آباء الكنيسة – بعد القدِّيس بولس الرَّسول – عن عبور البحر الأحمر كرمز للمعموديَّة، هو **العلاَّمة كليمندس الإسكندري** (١٥٠-٢١٥م)[1].

أمَّا **العلاَّمة أوريجانوس** (١٨٥-٢٥٤م) فيكشف عن الأساس اللاَّهوتي لهذا الرَّمز، باستشهاده بالقدِّيس بولس الرَّسول، فيقول في فرادة وجسارة، لم يجاره فيها أحدٌ من آباء الكنيسة:

[انظروا كيف يختلف شرح بولس الرَّسول لعبور البحر الأحمر عن القراءة التَّاريخيَّة؟ فالذي يعتبره اليهود عبوراً للبحر، يدعوه بولس معموديَّة. والذين يعتقدون أنَّها سحابة، يُبرهن القدِّيس بولس على أنَّه الرُّوح القُدُس. وهو (أي بولس الرَّسول) يودُّ أن تُفسَّر هذه الحادثة، بنفس المعنى الذي قصده الرَّب بقوله: «إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والرُّوح، لا يقدر أن يدخُل ملكوت الله» (يوحنَّا ٣:٥)][2].

ويكمِّل **العلاَّمة أوريجانوس** كلامه قائلاً:

[ما هو التَّعليم الذي أُعطي لنا إذاً؟ لقد قُلنا سابقاً رأي الرَّسول في هذا الصَّدد. فهو يدعو هذا الأمر معموديَّة

1- *Strom.* 7: 16.
2- *Hom.*, EX. V. 1.

لموسى تَمَّت في السَّحابة وفي البحر. وهذا يعنيكم أنتم الذين اعتمدتم في المسيح، بالماء والرُّوح القُدُس، لكي تعرفوا أنَّ المصريِّين في أعقابكم، ويريدون أن يُرغموكم على خدمتهم. والمقصود طبعاً رؤساء هذا العالم والأرواح الشِّريرة، هؤلاء الذين كنتم تحت عبوديَّتهم حتى الآن، فإنَّهم يسعون في تعقُّبكم، ولكنَّكم تنزلون إلى الماء فتُشفَون وتخلُصون وتغتسلون مرَّة واحدة من أدناس الخطيئة، وتصعدون منه «إنساناً جديداً» (أفسس ٢:١٥) مستعدِّين أن «ترنِّموا ترنيمة جديدة» (إشعياء ٤٢:١٠). أمَّا المصريُّون الذين يتعقَّبونكم، فسوف تبتلعهم الهاوية ...][٣].

ويشير **القدِّيس أمبروسيوس** (٣٣٩-٣٩٧م) أُسقُف ميلان، إلى نفس مضمون قول العلاَّمة أوريجانوس السَّابق ذكره، فيقول:

[يُعلِّمنا الرَّسول: «أنَّ آباءنا جميعَهم كانوا تحت السَّحابة، وجميعَهم اجتازوا في البحر، وجميعَهم اعتمدوا لموسى في السَّحابة وفي البحر» (١كورنثوس ١٠:١، ٢). بل يقول موسى نفسه في تسبحته: «أرسلتَ روحك فغطَّاهم البحر» (خروج ١٥:١٠). إنَّكم تلاحظون أنَّ المعموديَّة المقدَّسة سبق الرَّمز إليها حينئذ في ذلك الخروج الذي للعبرانيِّين، إذ عندما قُتل المصري هرب العبراني، لأنَّه ما الذي نتعلَّمه يوميًّا أيضاً من هذا السِّر، إلاَّ أنَّ الإثم قد ابتُلع، والخطيئة أُبطلت، أمَّا الفضيلة والطَّهارة، فيبقيان بلا ضرر] (في الأسرار ٣:١٢).

ويتكلَّم كثير من آباء الكنيسة عن حادثة عبور بني إسرائيل للبحر الأحمر، بأنها رمزٌ لمعموديَّة العهد الجديد. فيقول **القدِّيس ديديموس الضَّرير** (٣١٣-٣٩٨م):

[البحر الأحمر الذي أفسح للإسرائيليِّين عبوره دون خوف، وأنقذهم من الشُّرور التي توعَّدهم بها المصريُّون ... هذه جميعها رمزٌ للخلاص الذي يتم في المعموديَّة][٤].

ويوجز **القدِّيس باسيليوس الكبير** (٣٣٠-٣٧٩م) في بلاغة، معنى عبور البحر الأحمر فيقول:

[لو لم يعبر إسرائيل البحر، ما كان في استطاعته أن يهرب من فرعون. كذلك أنتم، إن لم تغطسوا في الماء، فلن تهربوا من استبداد إبليس القاسي. في البحر غرق العدو، وفي المعموديَّة تموت عداوتُنا لله. وكما خرج الشَّعب بسلام من البحر، هكذا نخرج أحياء من الموت، ونصعد من المياه أحياء من بين الأموات][٥].

* * *

وهكذا نجد، أنَّ الهبة الرُّوحيَّة التي نالها من الحقيقة، هي ما لا يستطيع الرَّمز أن يحقِّقه.

الرَّمز يعبِّر عن واقع يحمل في طيَّاته حقيقة أسمى منه، غير حاضرة كما هو حاضر. فالرَّمز يُخفي أكثر ممَّا يُعلن.

الرَّمز يمثل ما يرمُز إليه دون أن يكون إيَّاه.

الرَّمز لا يستوعب كلَّ ما يرمز إليه، وإلاَّ فقد بطُلَ أن يكون رمزاً.

يمكن استيعاب الرَّمز ذهنياً، أمَّا ما يرمُز إليه، فيظل عميقاً عميقاً لا يُسبره العقل، أو التَّصوُّرات الماديَّة.

الرَّمز لا ينكشف لكلِّ أحد، إلاَّ للذين أُعطوا من الله «بإعلان عرَّفني بالسِّر» (أفسس ٣:٣). وبرغم ذلك، فالرَّمز ليس إيماناً بل إعلاناً. وبقدر الفرق بين الإعلان والإيمان، يكون الفرق بين الرَّمز وما يشير إليه.

عند هذا الحد، ليس في معنى الرَّمز في العهد القديم شيءٌ من الغرابة، وهو ما نعرفه جميعاً. ففي المسيح له المجد، تبطُل كلُّ الرُّموز، وتتوقَّف كلُّ الإشارات، لأنَّه هو الذي قال بفمه المبارَك: «أنا هو الحق» (يوحنَّا ١٤:٦)، فلكونه هو الله، فهو الحقيقة الحاضرة أبداً.

ولكن أن تتحدَّث نصوص صلواتنا اللِّيتورجيَّة، عن أحداث أكملها السيِّد المسيح بنفسه في العهد الجديد، وتدعوها هذه النُّصوص اللِّيتورجيَّة مثالاً ورمزاً، فهو ما لم يطرقه الكثيرون من قبل، وهو ما أودُّ شرحه الآن.

3- *Ibid.*, V. 5.

4- *De trinitate*, 11:4.

5- *PG* 31, 425 b-c.

ولكن قبل أن أورد بعضاً من هذه النُّصوص اللِّيتورجيَّة، يلزمني أن أوضِّح مفهوم ''الرَّمز والمثال'' لُغوياً، سواء في اللُّغة اليونانيَّة أو في اللُّغة القبطيَّة.

ثانياً: مفهوم "الرَّمز والمثال" لغوياً في اللُّغتَين اليونانيَّة والقبطيَّة

لدينا في اليونانيَّة ثلاث كلمات أساسيَّة عن معنى ''الرَّمز'' أو ''المثال''.

+ **الكلمة الأولى** هي σύμβολον (سيمفولون)، وهو اسم مأخوذ من الفعل συμβάλλω (سيمفالُّو)، والذي يعني: ''يُلقيان معاً''. ومن هنا جاء معنى: ''يُبرمان عقدًا بينهما''.

ولهذا الفعل συμβάλλω (سيمفالُّو) عدَّة معان كثيرة[٦]. ولكن من بين معانيه التي تهمُّنا في دراستنا اللِّيتورجيَّة المعاني التَّالية: ''يُحضر معاً – يجمع معاً – يوحِّد – يجمع ما كان مكسوراً ومشوَّهاً وموضوعاً في غير مكانه''. ومن بين أهم معانيه في هذا الصَّدد: ''يقارن بين الحقيقة وما يفكِّر فيه الشَّخص عن هذه الحقيقة، ويوحِّدهما معاً''[٧].

أمَّا الاسم σύμβολον (سيمفولون) فيعني أصلاً عند اليونانيِّين القدماء: ''شيئًا ماديًا يكسره طرفان متعاقدان، وكلٌّ منهما يأخذ أحد جزئيه، كعلامة وإثبات للتَّعاقد المُبرم بينهما''. وبعد ذلك اتسع معنى الكلمة، ليشمل معاني متعدِّدة جدًا مثل: ''العقد – الإيصال – العربون – كلمة سرّ، أي علامة متَّفق عليها – إشارة أو دلالة – أوزان قياسيَّة – صيغة مختصرة لقانون الإيمان ... إلخ''. و''الرَّمز''، ليس إلاَّ أحد المعاني المتعدِّدة جدًّا لهذه الكلمة.

أمَّا المعاني اللِّيتورجيَّة لهذا الاسم والتي تهمُّنا في دراستنا اللِّيتورجيَّة، فمن بينها[٨]: ''رمزٌ يمثِّل الحقيقة أكثر ممَّا يعنيه الرَّمز نفسه – فحوى أو مضمون ممارسات ليتورجيَّة – صورة أو مثال حقائق سماويَّة، ولاسيَّما في طقوس الأسرار المسيحيَّة مثل المعموديَّة والإفخارستيَّا''.

أمَّا المعنى الأكثر أهميَّة بالنِّسبة لنا وبحسب آباء الكنيسة، فكلمة σύμβολον (سيمفولون) تعني أنَّ: ''العناصر الإفخارستيَّة، قبل وبعد التَّقديس، تتَّحد معاً بنوع ما، لتعني ما ترمز إليه، أو ما تشير إليه''.

... of Eucharistic elements both before and after consecration, as a symbol in some sense united with that which it signifies.

+ **الكلمة الثَّانية** هي τύπος (تيبوس)، وتعني أيضاً ''الرَّمز''، أو بتحديد أكثر ''المثال'' – ''التَّصميم الذي يوحي بفكرة'' – ''طبع الخَتم'' أيّ شيءٌ مكتوب أو مطبوع، باستخدام المعدن أو الحجارة – ''تمثال''. ولقد انحصرت الكَّلمة في معنى: ''المثال – الشَّبَه – الشَّكل أو نموذج الشَّيء''[٩].

ومن كلمة τύπος (تيبوس) جاءت كلمة τυπικά (تيبيكا). و''التِّيبيكا'' كلمة شهيرة في المصطلح الطَّقسي البيزنطي، وتعني: ترتيل مزامير[١٠]، وطلبات وترنيمات وألحان[١١]، ''كرسم أو مثال'' لسر الإفخارستيَّا الذي يصير تكميله في قُدَّاس المؤمنين.

وتُرتَّل ''التِّيبيكا'' في قُدَّاس الموعوظين في كلِّ الأيام ما خلا الأعياد الكُبرى. فهي بالنِّسبة للموعوظين تقوم مقام قُدَّاس المؤمنين. ومن هذه الكلمة، جاء كتاب ''التِّيبيكون'' في الكنيسة البيزنطيَّة، والذي يعني ''ترتيب الفروض الكنسيَّة''.

٦- من بين هذه المعاني التي وردت في كتاب العهد الجديد: ''يتفكَّر – يتآمر – يقابل – يوافي – يساعد – يشاور''. مثل قول الإنجيل المقدَّس: «تشاوروا وأعطوا العسكر فضَّة» (متى ٢٨:١٢).

Cf. also, Lampe, GWH, *A Patristic Greek Lexicon*, Oxford, 1961, p. 1283.

7- Cf. Liddell & Scott, *Greek-English Lexicon*, Oxford, 1986 p. 759 ; Lampe, GWH, *op. cit.*, p. 1280.

8- Lampe, GWH, *op. cit.*, p. 1282.

9- Liddell and Scott, *op. cit.*, p. 824.

١٠- وهما المزموران (١٠٢) «باركي يا نفسي الرَّب، وجميع ما في باطني يبارك اسمه القدُّوس ...»، ومزمور (١٤٥) «سبِّحي يا نفسي للبرب ...»

١١- مثل لحن أيها الابن الوحيد وكلمة الله ...

+ **الكلمة الثَّالثة** هي ὁμοίωμα (هوميوما)، وقد وردت في كتاب العهد الجديد بمعنى ''شَبَه – شكْل''. مثل القَـــول: «متَّحدين معه بشِبه موته» (رومية ٦:٥). أو في قوله: «صائراً في شِبه النَّاس» (فيلبي ٢:٧)[١٢].

والفعل منها: ὁμοιόω (هوميوأو) بمعنى ''يُشبَّه – يَتَشبَّه – يشابه''. مثل قول الرَّب: «بمن أشبِّه هذا الجيل؟» (متى ١١:١٦).

ووردت هذه الكلمة في كتابات آباء الكنيسة، بالمعاني التَّالية[١٣]: likeness (تَشابُه – **شَبَه**)، image (**صورة** – نُصْب – رسم – شكل – **صورة طبق الأصل**)، symbol (رمز – علامة – مثال)، figure (شكل – رسم – يصف بالرَّسم)، example (مثال – قدوة سابقة – نظير).

ومن المفيد لنا جدًّا أن نعرف أنَّ هذه الكلمة ὁμοίωμα (هوميوما) هي نفسها التي وردت في التَّرجمة السَّبعينيَّة للعهـــد القديم، حين يقول سفر التَّكوين: «وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ...

Καὶ εἶπεν ὁ Θεὸς, ποιήσωμεν ἄνθρωπον κατ᾽ εἰκόνα ἡμετέραν καὶ καθ᾽ ὁμοίωσιν ...

فخَلَقَ الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأُنثى خلقهم ...» (تكوين ١:٢٦، ٢٧).

وبهذا الصَّدد، نقول في تسبحة نصف اللَّيل: ''صنع الإنسان كشَبَهه وصورته، لكي يباركه''. وفي فكر آباء الكنيسة، أنَّ صورة الله في الإنسان، كامنة في طبيعة النَّفْس الخالدة.

فنقول في صلاة الصُّلح في القُدَّاس الباسيلي: ''يا الله العظيم الأبدي، الذي جبل الإنسان على غير فساد، والموت الـــذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته''. وهو نفس ما يقوله سفر الحكمة (٢:٢٣، ٢٤) «فإنَّ الله خلق الإنسان خالدا، وصنعه على صورة ذاته. لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم». ونقول في صلوات المعموديَّة المقدَّسة، إنَّ الله ''جَبَلَ الإنســـان، وأعطاه سُلطانَ الحياة الدَّائمة''.

وأيضاً بحسب فكر آباء الكنيسة، فإنَّ صورة الله في الإنسان واضحة في العقل، والنُّطق، والحكمة، والإرادة الحرَّة. لأنَّ كلَّ الكائنات مُنحت نعمة الوجود، أمَّا الإنسان وحده، فمُنح نعمتَين، نعمة الوجود، ونعمة خلقته عاقلاً، وعلـــى صورة الله ومثاله.

وفي ذلك يقول **البابا أثناسيوس الرَّسولي**:

[الله صالح، أو بالحري هو بالضَّرورة مصدر الصَّلاح، والصَّالح لا يمكن أن يبخل بأيِّ شيء. لذلك فإنه، إذ لا يضن بنعمة الوجود على أيِّ شيء، خلق كلَّ الأشياء من العدم بكلمته – يسوع المسيح ربِّنا. وفضلاً عن ذلـــك، فإنه إذ أشفق بصفة خاصة على الجنس البشري دون سائر المخلوقات على الأرض، وإذ رأى ضـــعفه – بطبيعـــة تكوينه – عن أن يبقى في حال واحدة، منحه نعمةً أُخرى، فإنه لم يكتف بمجرَّد خلقته للإنسان، كما خلق باقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض، بل خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً حتى في قوَّة 'كلمتـــه'، لكـــي يستطيع وله نوعٌ من ظلِّ 'الكلمة'، وقد خُلق عاقلاً، أن يبقى في السَّعادة أبداً، ويحيا الحيـــاة الحقيقيَّـــة، حيـــاة القدِّيسين في الفردوس][١٤].

وهكذا فإنَّ هذا الإنسان المخلوق على صورة الله، يمكنه أن يبلغ إلى مثال الله، حين يبلغ إلى كمال الفضيلة والقداسة.

فيقول **البابا أثناسيوس الرَّسولي**:

[لأنَّ النَّفْس خُلقت على صورة الله ومثاله، كما تُبين الكُتُب الإلهيَّة حين تقول علـــى لســـان الله[١٥] «نعمـــلُ الإنسانَ على صورتنا كشبهنا»، لذلك أيضاً فإنها حينما تتخلَّص من كلِّ أدران الخطيئة التي تُغطيها وتستبقي فقط

١٢– انظر أيضاً: (رومية ١:٢٣ ، ٥:١٤ ، ٨:٣ ؛ رؤيا ٩:٧).

13- Cf. Lampe, GWH, *op. cit.*,p. 956.

١٤– تجسُّد الكلمة ٣:٣

١٥– تكوين ١ : ٢٦

شبه الصُّورة في طهارتها، فإنه إذ تستنير هذه الصُّورة، استنارة كاملة، ترى النَّفْس يقيناً – كما في مرآة – صـــورةَ الآب، أي الكلمة، وبه تصل إلى فكرة الآب، الذي نعلم أنَّ صورتَه هي المُخلِّص](١٦).

وقبل أن نترك الكلمات اليونانيَّة التي تعني ''الرَّمز أو المثال والشَّبَه'' في الكتاب المقدَّس وفي كتابات آباء الكنيسة، ينبغي أن أشير إلى أنَّ الكلمة اليونانيَّة παραβολή (بارابولي) التي وردت في كتاب العهد الجديد بمعنى ''مَثَل – مثال – رَمز''، مثل قول العهد الجديد: «فسِّر لنا هذا المثل» (متى ١٥:١٥). «فمن شجرة التين تعلَّموا المثل» (متى ٣٢:٢٤). ''فدعاهم وقال لهـــم بأمثال'' (مرقس ٢٣:٣). «معلناً الرُّوح القُدُس بهذا، أنَّ طريق الأقداس لم يُظهر بعد، ما دام المسكن الأوَّل له إقامة، الذي هو رمز للوقت الحاضر» (عبرانيِّين ٨:٩، ٩).

هذه الكلمة παραβολή (بارابولي) لا تدخل ضمن الكلمات التي تختص بدراستنا الآن، لأنَّنا في الدِّراسات الآبائيَّة، لا نعتمد على التَّرجمة العربيَّة للكلمة، بل يلزم الرُّجوع إلى الأصل اليوناني أو القبطي لها. فإنْ عُدنا إلى هذه الكلمة في أحد القـــواميس اليونانيَّة المختصَّة بكتاب العهد الجديد، نجد أنَّ معاني هذه الكلمة هي(١٧): comparison (مقارنة) – illustration (توضيح) – analogy (مماثلة أو تجانس) — parable (مَثَل أو حكاية رمزيَّة).

بالإضافة إلى أنها في كتابات آباء الكنيسة، تعني أيضاً(١٨): ''إنشاء رواية أو قصَّة لتشرح جدالاً'' narrative composed to illustrate an argument – ''قول أو رواية تطابق الحقيقة'' saying or narrative that is literally true .

ما سبق ذكره، يختص باللُّغة اليونانيَّة. وأمَّا في اللُّغة القبطيَّة، فلقد استعارت اللُّغة القبطيَّة نفس الكلمات اليونانيَّة السَّابق ذكرها، لتوضِّح بها معنى ''الرَّمز أو المثال''، بالإضافة إلى كلمة ⲥⲙⲟⲧ والتي تعني: ''شكل – شَبَه – مثال – صفة – هيئة – سمة – مظهر – صورة – رسم''(١٩).

هذا هو ما تحويه اللُّغتان اليونانيَّة والقبطيَّة، لمعاني ''الرَّمز أو المثال أو الشَّبَه''.

ثالثاً: معنى "الرَّمز والمثال" في اللاَّهوت الآبائي المبكِّر وعلاقته بالأسرار الكنسيَّة

مفهوم الرَّمز في العهد الجديد يختلف عنه في العهد القديم، فهو في هذا الأخير – كما سبق أن قُلنا – تعبير أو إشارة إلى ما سوف يحدث في المستقبل، أمَّا في العهد الجديد، وبحسب آباء الكنيسة، فهو ما يحدث بالفعل في حياة الكنيسة الآن.

يقول **الأب ألكسندر شميمن** (+١٩٨٣م)(٢٠) Alexander Schmemann: ''إنَّ التَّمييز بين **الرَّمز والحقيقة** لم يكـــن وارداً عند آباء الكنيسة، ولا في التُّراث الكنسي المبكِّر. أمَّا عند اللاَّهوتيِّين المتأخِّرين، فقد صار الرَّمز أداة معرفة، كأي معرفة، معرفة عن الشَّيء، لا للشَّيء في ذاته.

فاستعمال الآباء للفظة 'رمز' وللألفاظ المرتبطة بها، ليس غامضاً، ولا غير دقيق، بل هو مختلف عن استعمال اللاَّهـــوتيِّين المتأخِّرين لها، إذ يبدو أنهم لا يُدركون أنَّ التَّحوُّل المتأخِّر في استعمال هذه الألفاظ هو في الأساس إحدى أبرز المآسي اللاَّهوتيَّة.

فعند الآباء:

الرَّمز يتضمَّن **الحقيقة** ويعبِّر عنها، وهو الصِّيغة التي تَظهر **الحقيقة** فيها ومن خلالها. فالرَّمز ليس سبيلاً إلى إدراك الحقيقـــة وفهمها وحسب، أي ليس واسطة إدراك وحسب، بل هو واسطة مشاركة أيضاً.

١٦– مقال ضد الوثنيِّين ١:٣٣، ٣٤

17- Liddell & Scott, *op. cit.*, p. 549.

18- Lampe, GWH, *op. cit.*, p. 1008.

١٩– انظر: معوَّض داود عبد النُّور، قاموس اللُّغة القبطيَّة للهجتَين البحيريَّة والصَّعيديَّة، قبطي عربي، الطَّبعة الثَّانية، إبريل ٢٠٠٠م، ص ٣٧٥

٢٠– الأب ألكسندر شميمان – وهو من أصل روسِّي – قد شغل منصب عميد معهد القدِّيس فلاديمير للاَّهوت بنيويـــورك، وأســـتاذ مـــادة لاهوت اللِّيتورجيَّا فيه. وتوفى سنة ١٩٨٣م. وقد عُرف محاضراً لامعاً وراعياً حقيقيًّا غزير القلم.

فالحقيقة الكاملة للسِّر الكنسي تكمُن في المضمون الذي يرمز إليه السِّر ويكشفه ويُظهره ويستعلنه. وهذا المضمون هو المسيح وملكوته.

وهذا المضمون يؤسِّسه السِّر الكنسي كرمز. وهذا الرَّمز تجري نسبته إلى المسيح، وإذ يمتلئ في المسيح، يكتمل ويُصبح سرًّا كنسيًّا.

أي أنَّ الرَّمز بطبيعته، يكشف **حقيقة** ما يرمُز إليه وينقل إلينا هذه الحقيقة. يكشف إمكانيَّة رؤية ما لا يُرى من حيث أنه لا يُرى، وإمكانية إدراك ما لا يُدرك من حيث أنه لا يُدرك، وإمكان استحضار المستقبل كمستقبل.

لم يكن الرَّمز مرادفاً لـ 'التَّصوير'. فالرَّمز بحسب المفهوم الآبائي، هو إعلان بل حضور **لحقيقة** لا يمكن في الظُّروف الرَّاهنة أن تكشف نفسها إلاَّ من خلال الرَّمز. ممَّا يعني أنه لا يمكن الفصل بين الرَّمز بمفهومه الآبائي، وبين الإيمان.

فالإيمان هو بالضَّبط، الدَّليل على **حقيقة** وجود الأشياء غير المنظورة، وهو أبعد ما يكون عن الاختبار العلمي الذي يحتاج إلى إثبات. وإن كان الرَّمز يفترض وجود إيمان، فالإيمان بدوره يتطلَّب رمزاً. فطبيعة الرَّمز تقتضي تجاوز التَّضاد بين ما هو حقيقي وما هو 'رمزي'، بإظهار **الحقيقة** أنها بمثابة إكمال للرَّمز، وبإظهار الرَّمز كمالاً لتلك **الحقيقة**. واستناداً إلى ما سبق يكون السؤال: إلى أيِّ شيء ترمز الإفخارستيَّا؟ وأيُّ **حقيقة روحانيَّة** يكشفها لنا سرُّ الأسرار؟ ومن هنا علينا أن نعترف بالإفخارستيَّا كسرِّ الملكوت"[٢١].

"لقد حُجِّم 'الرَّمز' من كونه مفهوماً يشرح **حقيقة** ما يحدث، إلى مفهوم يرمز مجازاً إلى ما يحدث.

فمنذ نشأة الكنيسة، يعترف الإيمان المسيحي ويتمسَّك بحقيقة استحالة الخُبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. وأيُّ خلط بين هذه الحقيقة، وأيِّ لون من ألوان الطَّابع الرَّمزي، كانت تُعتبر تهديداً للحدث الحقيقي والفعلي في الإفخارستيَّا، أي تهديداً لحقيقة الجسد والدَّم على المائدة المقدَّسة. ومن هنا، تقلَّص السِّر إلى 'صيغة تقديس'، ضمنت باقتضابها حقيقة حدوث تحوُّل في الزَّمان والمكان. ومن هنا أيضاً، كانت التَّحديدات التي خاضت أكثر فأكثر في تفاصيل كيفيَّة الاستحالة، وفعاليتها، وزمنها. فتم التَّشديد على التَّذكير، بأنَّ القرابين قبل التَّقديس لم تكن سوى الخُبز في الصِّينيَّة والخمر في الكأس، في حين أنه بعد التَّقديس، لم يبق سوى جسد المسيح ودمه. ومن هنا أيضاً، محاولات تفسير 'حقيقة' هذه الاستحالة باللُّجوء إلى مقولات أرسطو حول 'الجوهر' و'العَرَض'، وتحديدها على أنها استحالة في الجوهر. وقد أدَّى كلُّ ذلك في نهاية المطاف، إلى قطع كلِّ صلة فعليَّة بين القُدَّاس الإلهي نفسه، سواء كان ذلك بتعدُّد أجزائه أم في وحدته ككُل، وبين تحوُّل مواد الخُبز والخمر. وتالياً إلى استبعاده عملياً من محاولات تفسير الأسرار.

وإنَّ الصِّلة القائمة بين السِّرِّ الكنسي والرَّمز، هي التي بدأ اللاَّهوت ما بعد الآبائي بتقليصها أوَّلاً، ثمَّ التَّخلِّي عنها. وقد فَعَلَ ذلك، بسبب تصفيته التَّدريجيَّة لمعنى الرَّمز في مفهوم الآباء. وذلك بسبب أنَّ اللاَّهوت ما بعد الآبائي، قد ربط الإيمان بالمعرفة، كمعرفة عقليَّة منطقيَّة. وهي القضيَّة الجديدة في اللاَّهوت المتأخِّر. وأمَّا المعنى الآبائي للمعرفة، فهو الفهم والمشاركة معاً.

معنى الرَّمز في المفهوم الآبائي، هو معرفة ما لا يمكن أن يُعرف بطريقة أُخرى. والمعرفة هنا تتوقَّف على المشاركة، أي على اللِّقاء الحي، أي على الدُّخول إلى ذاك الواقع الظَّاهر الذي هو الرَّمز. إذ ذاك لا يكون الرَّمز مرتبطاً بالسِّرِّ وحسب، بل مصدراً له، وأيضاً شرطاً لإمكان وجوده.

إنَّ معرفة الشَّيء والاشتراك فيه أصبحا الآن واقعَين مختلفَين ونظامَين متباينَين. فبعدما انحطَّت قيمة الرَّمز في اللاَّهوت ما بعد الآبائي، أضحت النَّظرة إلى اللَّفظين: الرَّمز والحقيقة، لا متباينتان فقط، بل ومتعارضتان أيضاً.

٢١- الأب ألكسندر شميمن، الإفخارستيَّا سرُّ الملكوت، تعريب سامر عبّود، منشورات النُّور، ١٩٩٣م، ص ٥٥-٥٩

إنَّ اللاَّهوت ما بعد الآبائي، قد عزل مفهوم السِّر الكنسي داخل كيان سرائري قائم بذاته. وعندما أُعليت الأسرار الكنسيَّة ومُجِّدت من حيث هي حقائق سامية، بدأ اللاَّهوت يتغرَّب تدريجياً عن الأسرار الكنسيَّة.

وأيضاً فإنَّ الخطأ المميت في العقلانيَّة ما بعد الآبائيَّة، كان عزل السِّر الكنسي عن اللِّيتورجيَّا، من حيث كون اللِّيتورجيَّا تعبيرٌ كُلِّيٌّ عن حياة الكنيسة وإيمانها. هذا العزل في الواقع، قد عزل السِّرَّ الكنسي عن الرَّمز، أي عن تلك الصِّلة وذاك الاتصال بمجمل الحقيقة التي تتحقَّق في السِّرِّ الكنسي. وإذ أصبح السِّرُّ الكنسي 'أداة نعمة' مغلقة، قائمة بذاتها، صار نقطة حقيقيَّة في بحر من الرُّموز، فحُرمت اللِّيتورجيَّا من وظيفتها الخاصة التي هي ربط السِّرِّ الكنسي بمضمونه"[٢٢].

نخلُص إلى القَول، بأنَّ أسرار الكنيسة من حيث كونها توحِّدنا بالمسيح، وتثبِّتنا فيه، لا تكون رموزاً أو أشكالاً للتَّعبير عن إيمان الكنيسة، أو وسيلة للوصول إلى هذا الإيمان، بل هي تحقيق هذا الإيمان، هي إيَّاه وليس تعبيراً عن معناه. إيمان الكنيسة هو في كماله، اقتناء حياة المسيح وفكره، وبالتَّالي اقتناء حياة الكنيسة. فحياة الكنيسة هي في اقتنائها لحياة المسيح بالأسرار الكنسيَّة، تلك الأسرار التي استودع المسيح فيها كلَّ حياته، لكي تنتقل بدورها إلى الكنيسة، ومنها إلى كلِّ المؤمنين بالمسيح، ليس في كون الأسرار الكنسيَّة كوسيلة لغاية، بل نبع هذه الغاية ودوامها. فالانعزال عن الأسرار الكنسيَّة هو انعزال عن حياة المسيح، فحياتنا في المسيح لا تتم بواسطة الأسرار الكنسيَّة، بل من داخلها.

إنَّ عمل الكنيسة، هو أن تنقل إلينا وباستمرار حياة المسيح بالأسرار، فإن توقَّفت ديمومة السِّرِّ تعطَّل في الحال عمل الكنيسة، وانتفت بالتَّبعيَّة حياة المسيح فينا.

فكثيرون قد دخلوا الكنيسة عن طريق سرِّ المعموديَّة، كوسيلة للانضمام إلى شركة الكنيسة، لكنَّهم عاشوا حياتهم بمعزل عن حياة الكنيسة وشركتها، لأنَّهم لم يعيشوا حياتهم من داخل سرِّ المعموديَّة. فالمعموديَّة بالنِّسبة لهم هي حدثٌ قديمٌ قد طواه الزَّمن، وكلَّما تقدَّمت بهم الأيام والأزمان، أحكمت عزلتهم عن الكنيسة. وما هي معموديَّتنا سوى شركتنا الدَّائمة في موت الرَّب وقيامته؟ موتٍ عن العالم، وحياةٍ في الرَّب. وما هي معموديَّتُنا سوى في رفضنا وجحدنا للشيطان والعالم وأباطيله وبهرجاته وشروره. معموديَّتنا هي استمرار قبول المسيح في حياتنا، والعيش بموجب وصاياه، وخدمته بخوف كلَّ أيام غربتنا. لقد قُلنا كلَّ ذلك علناً يوم معموديَّتنا، أو قال ذوونا ذلك عنَّا، إلى حين أن أدركنا ما قُلناه وتسلَّمنا إيمان آبائنا: "اعترفُ لك أيها المسيح إلهي، وبكلِّ نواميسك المخلِّصة، وكلِّ خدمتك المحيية، وكلِّ أعمالك المعطية الحياة". وهكذا في باقي أسرار الكنيسة المقدَّسة.

أتكون الأسرار إذاً بعد ذلك رموزاً وإشارات ووسائل؟ إنَّ هذا الفكر المدرسي الغربي الذي تسلَّل إلى الفكر الشَّرقي الأرثوذكسي، قد لوَّث أعزَّ ما نملك؛ إيماناً حياتياً معاشاً داخل الكنيسة وليتورجيَّتها وأسرارها، وليس إيمان الكنيسة الفكري الذي يملأ العقل دون القلب، ويُزيد المعرفة على حساب التَّقوى.

رابعاً: بعض نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة التي تتكلَّم عن أحداث العهد الجديد بمفهوم "الرَّمز والمثال"

• نقرأ **في قُدَّاس القدِّيس سرابيون** – وهو قُدَّاس يحمل سمات مصريَّة أصيلة يعود إلى سنة ٣٥٠م – النَّص اللِّيتورجي التَّالي لكلمات التَّأسيس (١٣:١٢-١٤):

"إليك قدَّمنا هذا الخُبز، مثال τὸ ὁμοίωμα جسد الابن الوحيد. هذا الخُبز، هو مثال ὁμοίωμα الجسد المقدَّس. لأنَّ ربَّنا يسوع المسيح في اللَّيلة التي أُسلم فيها، أخذ خُبزاً، وكسر وأعطى تلاميذه قائلاً: خُذوا كُلوا، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم لمغفرة الخطايا.

لهذا نحن أيضاً قدَّمنا الخُبز صانعين مثال τὸ ὁμοίωμα الموت. ونتوسَّل بهذه الذَّبيحة، صالحنا جميعاً وارحمنا يا

٢٢- ألكسندر شميمان، من أجل حياة العالم، منشورات النُّور، ١٩٩٤م، ص ١٩٠-٢١١ بتصرُّف.

إله الحق ...''(٢٣).

''وأيضاً قدَّمنا الكأس مثال τὸ ὁμοίωμα الدَّم، لأنَّ ربَّنا يسوع المسيح، أخذ كأساً بعدما تعشّوا وقال لتلاميذه: خذوا اشربوا، هذا هو العهد الجديد، الذي هو دمي المسفوك عنكم لمغفرة الخطايا.

ولذلك قدَّمنا نحن أيضاً الكأس، مقرِّبين (إيَّاها) على مثال ὁμοίωμα الدَّم''.

• وفي القُدَّاس الغريغوري نقرأ في مقدِّمة القسمة:

''يا يسوع المسيح الاسم المخلِّص، يا من وضعت لنا مثال هذه الأسـرار διατυπώσας ταῦτα μυστήρια الإلهيَّة فائقة النَّقاوة، والسَّماويَّة''.

وفي صلاة أُخرى للقسمة في نفس القُدَّاس:

''أنت ياربُّ من أجل تحنُّنك الجزيل، جعلتنا أهلاً أن نصير أبناء وورثة، بالمعموديَّة. وعلَّمتنا مثال الصَّلاة Ἐδίδαξας ἡμᾶς τὸν τύπον τῆς προσευχῆς السِّرِّيَّة لندعو بها أباك ...''.

• وفي لقَّان الخميس الكبير، يقول الكاهن:

''دفعت ذاتك إلى الصَّليب المقدَّس من أجل خلاصنا. وضعت لنا هذا المثال ⲁⲕⲭⲱ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲡ̀ϣⲏⲓ ⲙ̀ⲡⲁⲓⲧⲩⲡⲟⲥ ⲫⲁⲓ إذ قُمتَ من العشاء وأخذت منديلاً، اشتددت به، وصببت ماء في لقَّان، وابتدأت تغسل أرجل تلاميذك ... إلخ''.

''قلتَ لهم: أنا غسلتُ أقدامكم رباً ومُعَلِّماً، فيجب عليكم أن يغسل بعضكم أقدام بعض. مثالاً صنعتُ بكم ⲟⲩⲥ̀ⲙⲟⲧ ⲅⲁⲣ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲓⲁⲓϥ ⲛⲱⲧⲉⲛ وكما صنعتُ بكم، اصنعوا أنتم أيضاً ببعضكم البعض ... إلخ''.

''علمتنا نحن أيضاً المحبَّة والوحدانيَّة، وأصلحتنا مع أبيك من جهة غسل أرجل تلاميذك، ونقاوة هذا المثال الحقيقي ⲛⲉⲙ ϯⲙⲉⲧⲕⲁⲑⲁⲣⲟⲥ ⲙ̀ⲡⲁⲓⲧⲩⲡⲟⲥ ⲫⲁⲓ ⲛ̀ⲁ̀ⲗⲏⲑⲓⲛⲟⲛ''.

''إذا كنتُ أنا الرَّبُّ معلِّمُكُم، قد غسلتُ أرجلَكم، فأنتم أيضاً يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض. مثالٌ قـد صنعتُه لكم ⲟⲩⲥ̀ⲙⲟⲧ ⲅⲁⲣ ⲡⲉ ⲉ̀ⲧⲁⲓⲁⲓϥ ⲛⲱⲧⲉⲛ لتصنعوا أنتم أيضاً بعضكم ببعض''.

• وفي لقَّان عيد الرُّسُل، يقول الكاهن:

''الآن أيضاً نتضرَّع إليك ياربُّ، ونطلب منك، عن هذه الفسقيَّة الموضـوعة مثـال الأردن ⲧⲁⲓ ⲕⲟⲗⲩⲙⲃⲏⲑⲣⲁ ⲉⲧⲭⲏ ⲉ̀ⲡ̀ϣⲏⲓ ⲙ̀ⲡ̀ⲧⲩⲡⲟⲥ ⲙ̀ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ الذي من أجل خلاصنا تعمدتَ فيه من أجلنا ...''.

• وفي لقَّان عيد الغطاس، نُصلِّي صلاة شُكر بعد اللقَّان، بدايتها: ''نشكرك أيها الرَّب الإله، لأنك جعلتنا مستحقِّين أن نكمِّل هذا السِّر المقدَّس ...''. وفيه نقول: ''أضيء نفوسنا وعقولنا، واكشف لنا معرفة هذا السِّر. ومـن الأمثلـة أهـدنا الاستزادة في العاليات ⲟⲩⲟϩ ⲉⲕⲉ̀ϭⲓⲙⲱⲓⲧ ϧⲁϫⲱⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗϧⲉⲛ ⲛⲓⲧⲩⲡⲟⲥ ⲉ̀ϧⲟⲩⲛ ⲉ̀ⲛⲏⲉⲧϭⲟⲥⲓ ⲛ̀ϩⲟⲩⲟ̀''.

٢٣- هنا ترد في قُدَّاس سرابيون عبارة: ''وكما أنَّ هذا الخُبز كان مبعثراً فوق الجبال، وجُمع إلى واحد، هكذا أيضاً اجمع كنيستك المقدَّسة من كلِّ أُمَّة، ومن كلِّ كورة، ومن كلِّ مدينة وقرية وبيت، واجعل منها كنيسة جامعة حيَّة واحدة''.
ويرى العالِم جريجوري دكس G. Dix أنَّ هذه الفقرة جاءت معترضة تسلسل كلمات التَّأسيس. كما أنَّ وصف القمح الذي يُصنع منه خُبـز الإفخارستيَّا بأنه كان مبعثراً على الجبال، لا يتناسب وطبيعة دلتا نهر النِّيل المنبسطة، ممَّا يعني أنَّ هذه العبارة ليست من نتاج تقليد محلِّي لصـلاة نشأت من تمويس بدلتا النِّيل. ولكنَّها في الحقيقة، هي اقتباس مأخوذ من صلوات الأغابي، كما وردت في الفصل التَّاسع من الدِّيـداخي. وهـو مؤلَّف سرياني الأصل. ومن ثمَّ، فلم تكن هذه العبارة المذكورة من صُلب النَّص الأصلي لليتورجيَّة سرابيون.
Cf. Gregory Dix, Dom, *The Shape of the Liturgy*, London, 1982, p. 167.

خامساً: بعض أقوال لآباء الكنيسة عن معنى "الرَّمز والمثال"

يقول **القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي الشَّهيد** (٣٥-١٠٧م):

[تصامُّوا عن أيِّ أحد يكلِّمكم عن شيء آخر غير يسوع المسيح ... الذي قام حقاً من بين الأموات، إذ أقامه الآب، الذي سيقيمنا نحن أيضاً على مثاله κατὰ τὸ ὁμοίωμα (even as after the same manner His Father will so raise up us)، نحن المؤمنين به في يسوع المسيح، الذي بدونه ليست لنا الحياة الحقيقيَّة] (الرِّسالة إلى ترالیا: ٩).

ويقول **البابا أثناسيوس الرَّسولي** (٣٢٨-٣٧٣م):

[ليت الذين أنكروا فيما سبق أنَّ المصلوب هو إله، يعترفون بضلالهم. لأنَّ الكُتُب الإلهيَّة تلزمهم بذلك، وخاصة توما الذي لما رأى أثر المسامير (print of the nails τοὺς τῶν ἥλων τύπους)[٢٤] صرخ قائلاً: «ربي وإلهي»] (الرِّسالة إلى إبيكتيتوس ١٠).

ويقول **البابا أثناسيوس الرَّسولي** أيضاً:

[إنَّ النَّار يمكن أن تشير إلى النُّور الصَّادر منها. فإنَّ نور معرفة المسيح بالإيمان، يُعتبر نوراً روحياً. وقد كان مثاله οὗ τύπος عمود النَّار الذي كان يُرشد إسرائيل ليلاً ...] (تفسير مزمور ٣:٥٠).

ويقول **القدِّيس غريغوريوس النِّيسي** (٣٣٥-٣٩٥م):

[كما أنَّ الرسَّامين ينقلون المعالم البشريَّة إلى اللَّوحات الفنيَّة بواسطة ألوان معيَّنة، فيضعون على الرَّسم صبغات خاصة متوافقة تجعل جمال الأصل ἀρχέτυπον ينتقل بكلِّ دقة إلى الصُّورة (أي المثال) (likeness ὁμοίωμα)؛ هكذا افهم معي، أنَّ خالقنا أيضاً قد زيَّن صورتنا بخلع فضائله عليها، وكأنها ألوان بهية حتى تنال جماله الخاص، فيُظهِر فينا أصل كيانه الخاص ...] (في خلقة الإنسان: ٥).

ويقول **القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم** (٣٤٧-٤٠٧م):

[إنَّ صليب الرَّب، هو بالنِّسبة لنا، فعل محبته التي لا ينطق بها نحو البشر، ورمز σύμβολον اهتمامه العظيم بنا ...] (شرح الرِّسالة إلى رومية، عظة ٢).

ويقول **ذهبي الفم** أيضاً:

[«وخرج من جنبه ماء ودم» (انظر يوحنَّا ١٩:٣٤). لا تعبُر ببساطة أيها الحبيب على هذا السِّر، فإنَّ عندي كلام آخر سريٌّ أريدُ أن أقوله: إنَّ هذا الماء والدَّم يرمزان σύμβολον إلى المعموديَّة والأسرار (الإفخارستيَّا)، ومن كليهما نشأت الكنيسة ... لأنَّ من جنبه خرج رمزا σύμβολα المعموديَّة والأسرار، وقد جَبَلَ المسيح الكنيسة من جنبه، كما جُبلت حواء من جنب آدم ...] (عظات للمعمَّدين الجُدُد ٣:١٧).

ويقول ذهبي الفم أيضاً عن المسيح، أنه هو:

[شريكُنا في الميراث (رومية ٨:١٧) وفي الدَّفن والصَّلب، لأننا «دُفنَّا معه ... متَّحدين معه بشبه موته» (رومية ٦:٤، ٥)].

καὶ σύμφυτοι γεγόναμεν τῷ ὁμοιώματι τοῦ θανάτου αὐτοῦ

planted together in the likeness of His Death

(شرح رسالة رومية ١٣:١٤).

ويقول **القدِّيس مقاريوس الكبير** (٣٠٠-٣٩٧م):

[الرَّب يناقش النَّفس، ويريها مثال (علامات) المسامير (the marks of the nails τοὺς τύπους τῶν ἥλων)

٢٤- سبق أن ذكرتُ أنَّ أحد معاني كلمة τύπος هو: "طبع الخَتم" أيّ شيء مكتوب أو مطبوع باستخدام المعدن أو الحجارة (انظر ص ٤).

قائلاً: انظري علامات المسامير (the marks of the nails οἱ τύποι τῶν ἥλων)، انظري الجلدات، انظري الجروح، هذه كلها تألمتُ بها من أجلك ...] (المجموعة الثَّالثة من العظات، عظة ٢:٣).

ويقول **القدِّيس مقاريوس الكبير** (٣٠٠-٣٩٧م) أيضاً:

[إنَّ الرَّب نفسه الذي هو الطَّريق والإله، قد جاء ليس من أجل نفسه، بل من أجلك، لكي يعطيك نفسه مثالاً (an example τύπος) في كلِّ عمل صالح ...] (عظة ٢٥:٢٦).

ويوجز **القدِّيس باسيليوس الكبير** (٣٣٠-٣٧٩م) معنى كون المعموديَّة بالماء والرُّوح هي رمز الحياة والموت، فيقول:

[أعطانا الرَّب مدبِّر حياتنا عهدَ المعموديَّة، وجعله رمزاً للحياة والموت. فالمياه تُكمِّل صورة الموت، أمَّا الرُّوح فهو يعطينا عربون الحياة. ومن هذا يمكننا أن نجيب بوضوح على السؤال عن علاقة الماء بالرُّوح، ذلك أنَّ غاية المعموديَّة مزدوجة؛ أوَّلاً: القضاء على جسد الخطيئة لكي لا يثمر للموت (رومية ٦:٦؛ ٥:٧). ثانياً: الحياة بالرُّوح التي تُثمر القداسة (رومية ٢٢:٦). ويحدث هذا عندما تتقبَّل المياه الجسد، مثلما يتقبَّل القبر الجسد، بينما يسكب الرُّوح القوَّة المحيية، ويجدِّد نفوسنا من موت الخطيئة، ويعيدنا إلى الحياة الأولى] (الرُّوح القُدُس ٥:١٥).

ويقول **القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي** (٣١٥-٣٨٦م):

[نزلتم الماء ثلاث مرَّات، وصعدتم أيضاً، وهنا تشيرون برمز إلى الثَّلاثة أيام التي دُفنها المسيح ... كنتم تموتون وتولدون، وإنَّ مياه الخلاص كانت قبرَكم وأُمَّكم في وقت واحد ... الآن يتم الأمران معاً في وقت واحد، إذ سارت ولادتكم جنباً إلى جنب مع موتكم ... يا للمحبَّة المترفِّقة المتجاوزة كلَّ حد] (المقالة ٢:٢٠).

وأختم حديثي بقول للمؤرِّخ **يوسابيوس القيصري** (٢٦٤-٣٤٠م)، يحكي فيه عن المسيح المتألم في شهدائه، فيقول في كتابه (التَّاريخ الكنسي ٥:١:٢٠-٢٣):

[أمَّا سانكتس Sanctus فكان يحتمل بشهامة تفوق قُدرة البشر كلَّ الإساءات الموجَّهة إليه. وبينما كان الأشرار يأملون عن طريق شدَّة التَّعذيب واستطالته أن يسمعوا منه شيئاً ممَّا لا يجب، كان يصمُد أمامهم بجأش، حتى ما كان يُدلي لا باسمه ولا بأمَّته ولا بمدينته ولا إن كان عبداً أم حراً، بل كان يُجيب على جميع أسئلتهم قائلاً باللُّغة الرُّومانيَّة: "أنا مسيحي!". فكان يعترف بذلك عوضاً عن اسمه، وعوضاً عن مدينته، وعوضاً عن جنسه، وعوضاً عن أيِّ شيء آخر ... وأخيراً ألصقوا بأعضاء جسمه الرَّهيفة قطعاً من النُّحاس محمَّاة بالنَّار. وبينما كانت أعضاؤه تحترق، كان هو يبقى صامداً وغير متزعزعٍ، راسخاً في اعترافه بالإيمان متقوياً ومرتوياً من ينبوع ماء الحياة السَّماوي النَّابع من جنب المسيح. وكان جسده الضَّعيف يشهد بما أصابه، إذ صار كلُّه مجروحاً ومتمزِّقاً ومتقلِّصاً، حتى فقد من الخارج شكله البشري، غير أنَّ المسيح الذي كان فيه، هو الذي يحتمل الآلام، وكان يتمِّم فيه أعمالاً مجيدة وعظيمة، إذ كان يُبطل قوَّة العدو، ويُظهر بمثاله ὑποτύπωσιν للآخرين (and making him an ensample for the others)، أنه حيث تكون محبَّة الآب فلا يوجد شيء مخيف، وحيث يكون مجدُ المسيح فلا يوجد شيء مؤلم] (رسالة كنيسة ليون عن شهداء بلاد الغال سنة ١٧٧م).